

العسكريون كالملوك ، إذا دخلوا قرية أفسدوها !

بقلم: رائف محمد الويشي

20 نوفمبر 2011



هناك معادلة عسكرية يتم تطبيقها تقريبا في جميع الدول الإسلامية ، وخاصة العربية : الشرطة تكون في مواجهة الشعب لتأمين النظام ، والجيش في مواجهة الاثنيين معا لنفس الغرض ، والحرس الجمهوري (أو الملكي) مع القوات الجوية في مواجهة من سبق لذات الغرض ، (لاحظ أن قيادة الطيران دائما – كالحرس الجمهوري أو الملكي - تكون في يد الرئيس أو الملك)..

في بلادنا يذهب الرئيس العسكري أو الملك المتعسكر لإلقاء خطاب ، يُغلق الطريق ويُحاصر الناس ، تمتلأ الشوارع بآلاف الجنود وتطير الطائرات المروحية لمسح المنطقة ، يدخل القائد الملهم أخيرا القاعة ، يهرع أمامه رجل تم اختياره بعناية وتحمل تفاصيل وجهه وجسده كل معاني الاحترام ، يسحب الرجل الكرسي المخصص للقائد الأعظم وينتظر حتى يأتي المحروس ويجلس ..

يقف القائد الأعظم (يسموه الأعلى لإحداث الصدمة النفسية المطلوبة) أمام الكرسي منتفخا كالتاوس ، جدران القاعة تهتز من شدة التصفيق ، الكاميرات تسجل من لا يصفق أو أولئك الذين يغشون في التصفيق ، ينظر فلتة زمانه إليهم وبيبتسم برقة ويطلب منهم الجلوس ، بعضهم يرفض الجلوس ويستمر في تصفيقه ليسجل أنه يحمل ولاء خاصا للقائد ، وبعضهم يلقي شعرا في بطولات المصباح المنير ..

يجلس مرجع قرنه منتفخ الصدر وينظر بابتسامة مصطنعة على الحاضرين في اتجاهات مختلفة كتعبير عن ثقة مفرطة ، الخطاب تاريخي دائما ، ننظر على قسماات الشمس المشرقة فنجد أن شعره أسود كليل سجونه ، لا أحد يدري أين ذهب شعر الأبيض ، بل لا أحد يجراً أن يسأل ، يخطب حجة زمانه بصعوبة من ورقة في يده ، الكلمات ترفض الخروج من فمه لأنها لا تسير على أرض مستوية ، فالمرفوع أصبح منصوبا ، والمكسور أصابه الفتح المبين فخرج مقذوفا إلى الخارج ، يمدح البطل المغوار في عراقه شعبه صاحب التاريخ المديد ، ويبالغ في بطولة جيشه الذي يفعل المستحيلات ، ما أن ينتهي من الخطاب حتى يهرع إليه مستشاروه بأخر التقارير عن أوضاع الفرقة العسكرية الفلانية أو الضابط الفلاني ، في المساء يجتمع أمين الأمة مع صبيانه ليعرف آخر أرقامه في البنوك الأجنبية ..

قبل حرب أكتوبر 1973 كانت قوات المدرعات المصرية في وضع صعب مقارنة بالمدرعات الإسرائيلية ، أغلب دباباتنا كانت من عيار 76 مم (الدبابة T34) ، وهى دبابة الحرب العالمية الثانية عند السوفييت ، بينما كانت جميع الدبابات الإسرائيلية من عيار 105 مم ، أعطى السوفييت لمصر قبل الحرب بشهور 200 دبابة من نفس عيار الدبابة الإسرائيلية (الدبابة T62) ، رفع ذلك معنويات الجيش ، لكن السادات أخذ نصف العدد ووضعه في لواء المدرعات التابع للحرس الجمهوري (اللواء المدرع 27) ، ووضع النصف الباقي مناصفة بين الجيشين الثالث (اللواء مدرع مستقل 25) والثاني (الفرقة 21 مدرعة) ..

تلقى السادات تقارير خطيرة من المخابرات العسكرية تفيد بأن قائد الفرقة 21 المدرعة – العميد عادل سوكة – لديه روح قتالية عالية ، والمخابرات لا تستريح لتلك الروح ، تم إعفاء اللواء سوكة من منصبه فورا وإرساله إلى تركيا كملحق عسكري عقابا له على تدريب قواته ..

بدأت الحرب وقام الجيش بما يتوافر في يده من سلاح متواضع ببطولات وحقق مفاجأة كبيرة لم يتوقعها السادات ، كان على الجندي المصري أن يواجه المدرعات الإسرائيلية وجها لوجه ، ويضع دباباته خلفه لأنها لا تصلح للمواجهة والمنازلة ، وحقق نتائج باهرة .. في 14 أكتوبر قلب السادات الطاولة على رأس الجيش المصري وذبحه بإجبار القادة بالخروج من مظلة الدفاع الجوى والقيام بهجوم واسع وهدد كل من يخالفه بالحاكمة العسكرية ..

تم تدمير المدرعات المصرية في ظرف ساعتين وأنها اللواء سعد مأمون ونقل إلى الإنعاش ، وتوالى الإسرائيليون على تدمير الدبابات المصرية في الأيام التالية .. في 20 أكتوبر كان اليهود على بعد 100 كم من القاهرة .. هكذا أرادها السادات وقالها بلسانه " أريد حربا للتحريك ، وليس للتحريك " ، لم يدرك أحد حينها أنه كان يقصد التحريك بالاعتراف ونزع سيناء من السلاح ..

(للمزيد ننوه إلى دراسة من خمس مقالات بعنوان " حرب أكتوبر ، وضرورة لجان التحقيق المستقلة " لكاتب المقال على مدونته) ..

أين كان اللواء المدرع حرس جمهورى 27 بعد أن دمرت المدرعات المصرية ؟

لم يغادر اللواء المذكور القاهرة وبقى بها لحماية السادات من عقاب جيشه الذي غدر به في أوج انتصاره ووقف يكذب ويدعى أنه أرسل اللواء 27 للجبهة ، ليغطي على تواطئه العمد بتدمير دباباتنا وقتل الآلاف من رجال مصر ، وما زالت كل الملفات الخاصة بما فعله السادات قبل وبعد أكتوبر ممنوعة من التداول وتم تدمير الكثير منها ، لكن الكثير من الشهود ما زالوا على قيد الحياة ..

يحكى لي أحد ضباط الحرس الجمهوري القدامى كيف يتم اختيار الجنود بهذا السلاح الخطير فيقول ما يلي : " كنا قبل حرب أكتوبر 73 نذهب إلى الوحدات ونختار الجنود الأقوياء ، ثم نسألهم عن رغبتهم في التدريب على العمليات الاستشهادية ضد اليهود ، من يوافق نرسله إلى الحرس الجمهوري ، ومن يعتذر يعود إلى الوحدات القتالية " ..

كانت شبه القارة الهندية حتى عام 1947 تشكل دولة واحدة تسمى الهند ، وفي العام المذكور انفصل جزء منها وأطلق على نفسه باكستان ، وفي عام 1971 انفصل الجزء الشرقي من باكستان وأطلق على نفسه بنجلاديش .. في الهند الحالية تحكم الأغلبية الهندوسية ، وفي باكستان توجد الأغلبية شبه المطلقة من المسلمين ، وكذلك في بنجلاديش ..

هل سمعنا عن انقلاب عسكري في الهند ، كما حدث في باكستان وبنجلاديش وبلاد المسلمين ؟ ..
هل سمعنا عن تزوير للانتخابات في الهند ، كما حدث في باكستان وبنجلاديش وبلاد المسلمين ؟ ..
هل سمعنا عن عمليات بيع من الباطن بالهند كما حدث في مصر وتقف أجهزة المخابرات كالأعمى على ما يجرى ؟ ..
هل رأينا في البرلمان الهندي صورة لجنرال كالح يجلس بين الأعضاء ، يفرض نفسه وكأنه يقول نحن هنا ، كما حدث في باكستان وبنجلاديش وبلاد المسلمين ؟ ..
هناك نقلة نوعية في اقتصاد هند ، فهو الثاني عالميا لسنوات – بعد الصين – في النمو ، فأين الاقتصاد في بلاد المسلمين ؟ ..

نعود إلى الحالة المصرية ، ونقول أن السادات (الأستاذ المخلص لمبارك) وضع قبل الحرب كل قائد عسكري على النقيض من نائبه ، وذلك من رتبة رائد وحتى وزير الدفاع ، إذا كان قائد الكتيبة متدين ويصلى ، يكون نائبه زيرا للنساء ، إذا كان رئيس الأركان يميل للسوفييت ، يكون وزير الدفاع من مؤيدي الأمريكيين .. كان الجميع يعلم بالتأثير المدمر لذلك على الجيش لفقدان الانسجام وزيادة التشاحن والاحتكاك بين القادة ، لكن ليس هذا هاما عند السادات ، المهم هو ألا يتفق الجميع وتسود حالة من الفوضى لتأمين النظام ..

لم يتوقف السادات عند هذا الحد ، بل ضرب بالحائط نصائح مستشاريه المتخصصين وعاند في أغلب مشاكل مصر .. لنضع جانبا تأمره الذي ذبح به جيش مصري في الحرب وما تلي ذلك من مفاوضات وضحت فيها كل أركان " الخيانة العظمى " ، لأن الوقت سيأتي ليعرف الشعب كل الحقائق ، لننظر إلى حادث قتل يوسف السباعي في فبراير 1978 بمطار لارنكا بقبرص ..
فقد أعقب قتل المرحوم السباعي قيام القاتلان باحتجاز بعض الرهان وأجبروا سلطات المطار في قبرص على توفير طائرة لهم وهربوا .. ماذا فعل السادات ؟ ، أرسل قوات الصاعق المحمولة في طائرتين C-130 إلى مطار لارنكا حيث طائرة الرهائن ، فقد المستشارون أصواتهم نصحا وتحذيرا للسادات من مغبة دخول المجال الجوي القبرصي دون استئذان من السلطات القبرصية ، حتى قائد قوات الصاعقة المسئول عن العملية (كان اللواء نبيل شكري) حذره عندما تمادى السادات وأمره بالهجوم ..

لم يستجب السادات لأى نصيحة ورفع صوته في اللاسلكي مهددا اللواء شكري (كما فعل مع الفريق الشاذلي في أكتوبر 73) ، وانتهت مشكلة لارنكا بكارثة مقتل كل قوات الصاعقة التي نزلت من الطائرتين ، ونجا بأعجوبة اللواء شكري بعد أن إصابة مقر قيادته بقذيفة مباشرة من إحدى الدبابات القبرصية ..

إقتص جيش مصر في يوم عيده المنقوص من السادات على كل ما فعل ، فقد دفع ثمن صداقته مع كمال أدهم في الستينات ، ودفع الثمن لما فعل في فندق هيلتون في 28 سبتمبر 1970 ، ودفع الثمن على ما اقترفت يده مع الجيش قبل الحرب ، ودفع الثمن على الجرائم التي ارتكبها في غرفة 10 أثناء الحرب ، ودفع الثمن على خيائته العظمى أثناء المفاوضات عندما أعطى لليهود أكثر مما يطلبون .. (لمزيد من التفاصيل ننوه إلى مقال بعنوان " فى ذكرى اغتيال الفريق الليثى ناصف ، إصحى يا شعب " لكاتب المقال على مدونته)

في غفلة من الزمن وصل تلميذ السادات النجيب حسنى مبارك إلى الحكم ، كان في الأصل يعمل ضابطا وإشيا بكل زملائه في الطيران ، ويقف ذك وراء تسلقه السريع فى المناصب .. كرس مبارك جل وقته فى تأمين نفسه من الانقلابات ، ربما لأنه يعرف أن الدجاجة التي

تبيض ذهباً قد أصبحت في يديه هو وحده ، وعليه - كأي حيوان مفترس - أن ينظر حوله لتأمين نفسه قبل ابتلاعها ..

لم يتبع مبارك أسلوب السادات في تأمين نظامه ، فنهج نهجا متطرفا نضع ملخصا له في النقاط التالية :

- 1- أولى مبارك اهتماما مبالغا فيه في زيادة قوة أجهزة أمن الدولة وجهاز المخابرات العسكرية كجهازين هامين لجمع المعلومات ..
- 2- ضاعف مبارك من قوة الحرس الجمهوري ، وأمدّها بأحدث الأسلحة الغير متواجدة في الجيش ..
- 3- نقل قيادة الطيران إليه مباشرة ، وعمل صداقات بينه وبين الطيارين وعلى مستوى عائلاتهم للدفاع عنه ..
- 4- أحال الضباط المتدينين بالجيش والشرطة إلى التقاعد ، أو ضيق عليهم لإجبارهم على التقاعد ، أو نقلهم لأماكن معدومة ..

أخذت الدجاجة تنزل بيضها الذهبي واحدة بعد أخرى ، القسمة عادلة ويتم تقسيمها بدقة على جميع أفراد العصابة .. هناك الصف الأول من العصابة ويتكون من مبارك وأسرتة وكبار الضباط في الجيش ، وخاصة بالحرس الجمهوري والقوات الجوية .. الصف الثاني يتكون من كبار الضباط في الشرطة ، وخاصة في جهاز أمن الدولة وقوات الأمن المركزي .. الصف الرابع يتكون من كبار السياسيين الذين يروجون لأمن النظام .. الصف الخامس يتكون من خبطة من الضباط والسياسيين من المستوى المتوسط والأدنى .. (لمزيد من التفاصيل ننوه إلى دراسة من ثلاث مقالات بعنوان " عناقيد آل مبارك ، وفئران السفينة " لكاتب المقال على مدونته) ..

مع منتصف تسعينات القرن الماضي كان السخط الشعبي قد وصل إلى حد يهدد النظام ، لم يعر مبارك أدنى اهتمام بالشعب وخاصة منذ تلك الفترة وحتى رحيله ، بل إن العكس هو ما حدث تماما .. زاد الفقر وزادت السرقات ، وزاد السخط ورد عليه مبارك بمزيد من الانتهاكات التي كان بعضها ينم على أن مصر قد أصبحت غابة بالفعل ..

ظن مبارك أن الإجراءات التي قام بها في الداخل كفيلة بتحقيق الأمان لنظامه ، فضباطه في الجيش والشرطة يسيطرون على الموقف ، والقسمة العادلة في البيضة الذهبية جعلتهم يتمسكون به أكثر ، وهم أصبحوا مشاركين معه في الانتهاكات ، وعليهم أن يدافعوا عن أنفسهم بالدفاع عنه ، إذا سقط سيسقطون معه ، إذا حوكم سيحاكمون معه ، هكذا أصبحت العصابة في قارب واحد ..

كان مبارك على ثقة من أن التهديد لنظامه يأتي من الإدانات الدولية ، كان التعاون مع أمريكا ضد الإرهاب واقترب مبارك من إسرائيل كفيلا بغلق ملف الخارج ، لكن ذلك لم يدم طويلا ، ففي عام 2005 جاءت د. رايس كوزيرة للخارجية الأمريكية بسياستها الجديدة التي أقلق مبارك كثيرا .. أدركت رايس أن أمريكا تدفع الثمن من دماء شعبها لمساعدتها الطغاة في المنطقة على البقاء ، كانت هذه سياسة أمريكية قديمة صنعتها في الكثير من البلاد التي دخلتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، خاصة في أمريكا اللاتينية ، لكن اللعبة الآن تغيرت كثيرا ، فضحايا النظام الديكتاتوري في الشرق الأوسط تبهوا لذلك واتجهوا بطائراتهم الصاروخية إلى قلب المدن الأمريكية .. أشارت رايس بأسلوب دبلوماسي في أكثر مرة - كان أهمها بالجامعة الأمريكية في القاهرة - إلى ضرورة إدخال الديمقراطية في الشرق الأوسط ، لم يعلق مبارك وكان الأمر لا يعنيه .. اضطر بوش إلى أخذ الموضوع على لسانه ، لكن المنوفى واصل " الطناش " ، رفع بوش من لهجته وبدأ في ذكر اسم مصر تحديدا وطالب مبارك بأن تكون مصر رائدة في هذا الموضوع في المنطقة ..

كان على مبارك أن يتحرك سريعا ويغير من قواعد اللعبة ، لأن أمريكا هو سنده الوحيد ضد شعبه ، وقد عمل مبارك في ثلاثة محاور هامة لصد تلك الهجمة الأمريكية التي تهدد أركان نظامه :

المحور الأول : عقد لقاءات صحفية مع الصحف العالمية شرح فيها أن الديمقراطية في الشرق الأوسط ستأتي بالإسلاميين الذين يهددون مصالح أمريكا والغرب في المنطقة (راجع حديثه في صحيفة الجمهورية الإيطالية في 2005) ..

المحور الثاني : لما فشل المحور الثاني أوعز مبارك - بالاتفاق مع القادة العرب - على إقناع محمود عباس بعدم تزوير الانتخابات كي تتجرع أمريكا من كأس الديمقراطية ، فازت حماس وشرب عباس المقلب وحده ، أخذ مبارك يلعب باحتراف في هذا المحور ، كلما تكلمت أمريكا عن الديمقراطية في مصر ، زادت حركة الأنفاق في نشاطها حتى وصلت صواريخ حماس إلى عسقلان (40 كم من غزة) ، أعطى المحور الثاني بنتائج باهرة وصممت أمريكا بضغط من إسرائيل ، ووضعت مبارك موضع الرعاية والاهتمام ..

المحور الثالث : استنثار النجاح في المحور الثاني بمكافأة إسرائيل بسخاء على وقفها القوية معه ، وتمثل ذلك في ما يلي :

- 1- فرض حصار شامل على قطاع غزة ، ولما لم يأت ذلك بنتائج كبيرة قرر مبارك بناء حائط فولاذي لإحكام الحصار ..
- 2- وقف أي مصالحة بين الفصائل الفلسطينية والعمل على هدم الثوابت (حدود 67 / القدس الشرقية / اللاجئيين / المياه) ..
- 3- توقيع اتفاقية غاز إستراتيجية مع اليهود ، وهي تشبه إلى حد بعيد ما وقّع عليه السادات مع اليهود بعد الحرب ، أي أنها اتفاقية تحمل كل أركان الخيانة العظمى ..

ككل الثورات ، فاض الكيل وخرج الناس إلى الشوارع بصدورهم للرصاص ، حاولت أمريكا مساندة عدة مرات وحتى قبل سقوطه بيومين ، لكن الغضبة الشعبية كانت أقوى ، عناد عنيف أظهره المصريون في الشوارع لأول مرة في تاريخهم الممتد لسبعة آلاف ..

وقف ضابط الجيش الكبار المتحالفين مع مبارك على الدوام نفس الوقفة التي وقفها ضباط الشاه عند سقوطه ، لقد أمسكوا بالعصا من المنتصف بعد أن هالهم تصدى الشعب بصدوره للرصاص ..

- 1- كيف نفسر محاصرة المتظاهرين في الميدان ومنع الطعام والشراب عنهم عدة مرات ؟ ..
- 2- كيف نفسر الزيارات المكوكية لقادة الجيش للثوار في الميدان كمحاولة لتفتيت الثورة وفض الاعتصام ؟ ..
- 3- كيف نفسر طيران الإف 16 فوق المتظاهرين في ميدان التحرير يوم 30 يناير ؟ ، لقد كان أسخف ما قيل في هذا الصدد هو تصريح قائد الطيران بأن تلك الطائرات كانت تحمي الثورة !!! ..

أخيرا فازت الثورة ، وكعادة كل العسكريين باعوا رئيسهم لقطف الثمار لصالحهم وأمسكوا بسرعة بزمام الأمور في أيديهم ، وترجموا ذلك في خطوات واضحة المعالم لكل من لديه بصيص نظر :

- 1- تقليب الجبهة الداخلية بالانحياز إلى الطرف الأقوى كمرحلة أولى (الإسلاميين رغم العداء التاريخي معهم !!) لتفتيت الطرف الأقل (الثوار) ، ثم تفتيت الأقوى بالمهزوم في صورة عمليات ثارية يدعون فيها أن الطرف الأقل هو من قام بها ..
- 2- عدم إعطاء أي إصلاح إلا تحت الضغوط الشديدة للشعب ..
- 3- حماية كل الضباط ، خاصة أولئك الذين قتلوا المواطنين للحاجة لهم في المرحلة التالية (مرحلة السيطرة الكاملة ، أو مرحلة الانحناء للعاصفة حتى تمر ثم يليها الانقلاب العسكري) ..
- 4- تنشيط عمليات البلطجة لتأديب الشعب حتى يدفعوه إلى تدخل الجيش والسيطرة على البلاد لحماية أبنائهم ..
- 5- إهانة جرحى الثورة وعدم الاهتمام بهم والاعتداء على أسرهم وأسر الشهداء في حالة الشكوى ..

أسئلة مشروعة إلى المجلس العسكري (ضباط مبارك المخلصين) :

- 1- إذا قلت أنكم لستم شركاء في نهب ثروة مصر ، فأين كنتم عندما كانت تنهب مصر وتخرج الأموال أمامكم إلى البنوك العالمية ؟
- 2- إذا قلتم أنكم لستم شركاء في المؤامرة ، فأين كانت أجهزة مخابراتكم التي تعرف التفاصيل في صفقة الغاز وغيرها من الاتفاقات واللقاءات مع اليهود على نهب أو ثروة ؟
- 3- ضربتم أمهات الشهداء والجرحى ، ولا تقدمون الإصلاحات إلا تحت ضغوط ، وتحمون مبارك في مسرحية سخيفة تسمونها محاكمة ، وتنشط أعمال البلطجة أمامكم وكأنكم غير موجودين ، وتطلقون ضباط الداخلية المتهمين بقتل الشعب ، ألا تشعرون بالخزي لما فعلتم طوال حكم مبارك وما تفعلون الآن ؟
- 4- بنود الوثيقة الدستورية التي وضعها أحد رجالكم (البنود 9 ، 10 ، 23) توضح أنكم ما زلتم تحتقرون الشعب ، أليس كذلك ؟

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com